الثنائية والألسنية السامية

للأستاذ الأب مرمرجي الدومينيكي

بقية ما نشر في العدد الماضي

هذا ومن المألوف ومن المقرر عند علماء العربية الأقدمين والمعاصرين ، وعند الأجانب من مستشرقين ومستعربين ، أن الزيادة تجري بالتتويج والإقحام والتذييل ، وفي كل حال من هذه الأحوال يتم الأمر على سبيل الأغلبية ، أي بالسماع وليس بقياس محكم . وهذه طائفة من الأمثلة على أنواع الزيادة الثلاثة :

أولا : الزيادة بالتتويج : « يقطين » كل شجرة لا تقوم على ساق . الياء زائدة تتويجا لأن اللفظة صادرة عن قطن أي انحنى ، إذ لا ساق له فينحني نحو الأرض . « ترفل » تبختر كبرا ، بزيادة التاء تتويجا ، لأن الأصل رفل : أرسل إزاره وتبختر .

« نهبل » من هبل بزيادة النون . « جرع وهبلع » بزيادة الهاء تتويجا ، لأن الأصل جرع وبلع

ثانيا : الزيادة بالإقحام : « زنبيل » من زبيل ، بإقحام النون . « بلطح » من بطح ، بإقحام اللام . « شربك » من شبك ، بإقحام الراء . « جلمح » من جلح ، بإقحام الميم ، « دربل » من دبل ، بإقحام الراء . « طرمح » من طمح ، بإقحام الراء . « عنصل » من عصل بإقحام النون

ثالثا : الزيادة بالتذييل : « بلسن » من بلس ، بإلحاق النون . « محلكم » من حلك ، بإلحاق الميم . « عبدل » من عبد بإلحاق اللام . ومن هذا شيء كثير في العربية وبقية الساميات

ذا قد سلم به وقرره الأقدمون من الزيادة بالحروف وطريقة إجرائها في الرباعيات والثلاثيات يسوغ بكل حق وصواب تطبيقه على الثنائيات . وهذا ما قد حاولنا تبيانه في تآليفنا الثلاثة الموضوعة لهذه الغاية على ضوء الثنائية والألسنية السامية ، مع العلم اليقين بوعورة المسلك

مع ذلك بعد التقصي والاختبار يمكن أن نضيف الحروف القابلة الزيادة على الرءوس الثنائية من باب الأغلبية كما يلي :

أولا : كل حرف من الحروف النابعة يصلح أن يكون تارة متوجة Prefixe ، وتارة مقحمة Infixe ، وأخرى مذيلة Suffixe وهذه هي : أ ت ع ل م ب ه و ى

ثانيا : الهاء والشين تصلحان للتتويج والتذييل

ثالثا : هذه الحروف التالية تستخدم للتذييل ، وهي : س ب ك ق

ولمعرفة الأمثلة تفصيلا على طريقة زيادة كل حرف من هذه الحروف ، يمكن الرجوع إلى كتبنا ، ففيها من الشواهد المؤيدة غالب ما أبديناه . فأكتفي بإيراد نماذج على الطريقة المتنوعة الجارية بضرب من الاعتباط ، أي لدواع غير داعي الدلالة على معنى خاص أو على دور معين

فهناك الزيادة من باب الإلحاق ، والإلحاق يحد : بكونه زيادة لا لإضافة معنى جديد ، بل لمحض الموافقة بين وزن ووزن آخر ليعامل معاملته

ولا يكتفى لحروف الإلحاق بأن تكون من حروف سالتونيها ، بل يستعمل غيرها أيضا . هو ذا الإلحاق من جهة

عند البخاري ووقع في جميع النسخ عند مسلم (الظهر) مع اتفاق البخاري ومسلم على روايته عن شيخ واحد بإسناد واحد . وقد وافق مسلما أبو يعلى وآخرون وكذلك أخرجه ابن سعد . وأما أصحاب المغازي فقد اتفقوا على أنها العصر ثم قال ابن حجر بعد ذلك إن البخاري كتبه من حفظه ولم يراع اللفظ كما عرف من مذهبه في تجويز ذلك بخلاف مسلم فإنه يحافظ على اللفظ كثيرا

ولقد بلغ من أمرهم أنهم كانوا يروون الحديث بألفاظهم وأسانيدهم ثم يعزونه إلى كتب السنة

قال العراقي في شرح الغنية : إن البيهقي في السنن والمعرفة والبغوي في شرح السنة وغيرهما يروون الحديث بألفاظهم وأسانيدهم ثم يعزونه إلى البخاري ومسلم مع اختلاف الألفاظ والمعاني ، فهم إنما يريدون أصل الحديث لا عزو ألفاظه

ومن هذا القبيل قول النووي في حديث (الأئمة من قريش) أخرجه الشيخان مع أن لفظ الصحيح (لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان) ونكتفي بهذه الأمثلة

المنصورة — لبيب سعيد — محمود أبو ريه

اللام ، نحو « ضرب » من ضرب . « جلبب » من جلب . « قعدد » من قعد . رعدد . رعشن . كرمم . حرجج . دحال . شمال . صمرر

هناك الإلحاق من غير جهة اللام ، نحو « حنظل » من حظل . « جندل » من جدل . « فلحص » من فحص . « تلمس » من لمس

هناك الزيادة من باب الفنة ، نحو « رنز » من رز ، « حنظ » من حظ ، « أجار » من أجار ، « انحاص » من أحاص

هناك الزيادة لتقوية الحركة دون قصد معنى معين ، نحو « برا » يقال منه : يرع والنسبة يرعى ، أن يرانى . كما يقال توقع من توقى . وجزأ وجزع من جزا ، وبدأ وبدع من بدا

هناك الزيادة لمذوبة اللفظ ، نحو « يا أبتى » عوض يا أبى . « عصاى » عوض عصاى . قدنى قطنى بإقحام النون . امت ثمت وربت ، بإلحاق التاء

هناك الزيادة لإقامة الوزن ، نحو تبيضى بدل تبيض

هذا ، ومن نتائج نظرية الثنائية ، أولاً أن المثال والأجوف والناقص ما هى سوى مزيدات أو توسعات فى الرس الثنائى الذى يجئ فيه التوسع بتكرار الثانى منه ، أو بتشديده ، أى بتكراره لفظاً ووضع الشدة عليه

ثم من جملة أنواع التوسع فى الأصول مثلا : أن الفعل « وتب » مزيد فى الثنائى « ثب » وأن « قام » هو الثنائى « قم » أشبعت حركة حرفه الأول . مما يظهر فى السريانية فى كلمة « قم » إذ لا ألف مقحمة فيها ، ومن الكتابة العربية القديمة التجلية فى رسم المصحف المحافظ عليه حتى اليوم . إذ لا نجد فيه قام بل « قم » . كذلك الفتحات المشبعة لا يرسم عليها ألف . ويبين ذلك أيضا فى مجرى التصريف الذى إن هو إلا رس الكلمة ملحقا به الضمائر . فيقال : « قم » ت « قم » تم ، « قم » نا . مما جاء دليلا واضحا على أن الأصل هو الثنائى ، وأن هذا الثنائى يدل على معنى تام فى حالته الثنائية ، وكذا الشأن فى الناقص . فإن لامه ليست حرفا ، بل إطالة أو إشباع الفتحة السابقة . مثلا : « رمى » هو الثنائى « رم » حرك حرفه الثانى بفتحة مشبعة علامتها فى الرسم ألف . كذلك « رم » ت هى « رم » نا هما ، مما يظهر فيه الأصل الثنائى ملحقا به ضمير متصل

أما الضاعف فهو بالحقيقة مركب من حرفين كما يتجلى ذلك فى معاجم الأقدمين « ككتاب المقاييس » لابن فارس ، فانه يسميه « الثنائى » ويذكر فى المادة حرفين لاغير ، ويرى ذلك فى المضاعف الرباعى أو المطابق كما يدعوه ابن فارس . وما هو سوى ثنائيين مكررين . مثلا : « قرقر » ، « خرخر » ، « دبدب » ، « مرمر » ، « لملم » ، « لألأ ... إلخ »

ومن هذه المادة شىء كثير فى اللغات السامية ولهجاتها ، وقد جمعنا منها ٣٥٠ فى العربية الفصحى ، ويوجد أكثر منها فى اللهجات . وما هذه الأفعال وأسماؤها إلا حكاية أصوات الطبيعة والحيوانات المندفعة إلى تكرار مقاطع لا حروف ، وكل مقطع مركب عادة من حرفين متحرك فساكن ، مما هو وارد على هذا النمط فى اللغات السامية الباقية ، كالسريانية مثلا نجد فيها « بلبل » « زلزل » . وكذا الحال فى اللهجات . أما الفصحى ، فالفتحة الواقعة فى آخر الثنائى ، وفى آخر الأفعال السالمة ، إنما كان داعى وجودها هو الوصل . فعوض القول : خرخر الماء ، قيل فى الوصل : خرخر الماء

وبدل مثل الرجل قيل فى الوصل . قيل الرجل وبعد ذلك بقيت الفتحة فى غير حال الوصل

وأنت ترى أن الطبيعة عينها ميالة إلى الثنائية ، لا إلى الأحادية ، كما يمكن بعضهم التوهم أن الإنسان الأول بدأ يتكلم بحروف منفصلة ، لأن الحروف المنفصلة لا وجود لها إلا فى جدول الأبجدية ، أى فى الكتابة ولا فى اللفظ . والسبب أن أعضاء النطق عينها لا تخرج للتكلم حروفا صامتة متفرقة ، بل مقاطع مركبة من الصامتات تحركها الصائتات

ومن الأدلة على وجود الثنائى فى أصل اللغات ولاسيما السامية منها ، هو أن المضاعف العربى الذى يقال إنه مركب من ثلاثة حروف أصلية لا تجد مقابله فى السريانية إلا بحرفين اثنين لا أكثر . مثلا مقابل « مص » مص ، وبحذاء « حم » حم ، وبازاء « مس » مس وهكذا كل المضاعفات التى هى بالحقيقة ثنائيات . الثنائى وارد فى كل الساميات متصفاً بمعنى حقيق وتام

ولنا برهان حسى جلى على وجود الثنائى فى أصل اللغة يستخرج من العناصر الأولية للغة العربية ، وهى أسماء الأصوات ودعاء الحيوانات وزجرها ، وبعض أسماء الأفعال ، فهى ثنائية . ومنها كان بدء صوغ الفعل المضاعف ومكرره . مثلا « أف » كلمة تكره « آه » للتوجع « به » بخ لاستعظام الشئ « غس » لزجر الهر (ضع) اسم صوت يزجر به الجمل عند ترويضه (بس) دعاء ، وزجر للغنم ، (صه) أمر بالسكوت ، (مه) أمر بالكف

فمن هذه الثنائيات صيغ أفعال إما بتحريك الساكن وتشديده ؛ وإما بتكرار الثنائى ذاته وتحريك الآخر فى العربية . فقيل : أف ، أه ، به ، بخ ، غس ، ضع ، بس ، صهصه ، مهمه . وكذا القول فى : (ثب) ، فانه مشتق من ثب ، ومنه المكرر (ثب ثب)

أما (وثب) فهو ثب زيدت فيه الواو تتويجا ، فحصل من ذلك ما يدعى فى الصرف مثالا . وجدير بالملاحظة كيفية وقوع الزيادة فى (ثب) ، (ووثب) أى بإضافة حرف مع بقاء اللحمة المعنوية بين المجرد والمزيد ، وهى بالحقيقة مستمرة بينهما . إذ أن (ثب) يراد به الجلوس بتمكن ، و (وثب) بمعنى القعود فى لغة حمير ، ويدل على النهوض وعلى الظفر ، على أن هذا التضاد يزول إذا عرفنا أن الثنائى (ثب) متضمن معنى عاما ، هو نحوى الحركة التى هى أساس هذه الدلائل المختلفة ، لا بل المتنافرة ظاهريا . فعند فريق أو قبيلة من القبائل دل الفعل على القعود ، لأن فى القعود حركة ، وعند قبيلة أخرى أطلق الفعل على القيام والقفز ، لأن فى ذلك كامن المدلول العام ، وهو الحركة

أما القول — وهو قول أحد الغربيين — بأن (من وثب) هو بمنزلة من جلس فى الهواء ، فهو من المعانى التى لم تخطر على بال العرب حين تداولوا كلمة (وثب) لحسبان مثل هذا الحادث عصر ذاك من خوارق الأنبياء ، بيد أنه يفهم فى عصرنا الذى تمكن فيه الإنسان من أن يجلس نوعا من الجلوس فى الهواء أى بركوبه الطائرة

ومما يجدر بالذكر أن مقابل « ثب » العربية وارد فى السريانية Vethel ، ومعناه وثب ، جلس ، قعد . مما يتبع عنه بوضوح أن الرس الثنائى هو « ثب » . فتوسع فى الزيادة بطرق مختلفة مع استمرار الصلة المعنوية بينه وبين مزايداته ، أى فحوى الحركة أولا فى العربية بتضعيف حرفه الثانى ، فجاء « ثب » ثم بإضافة واو تتويجا فى العربية ذاتها . فصدر عن ذلك فعل « وثب » ، وبزيادة ياء بالتتويج أيضا فى السريانية ، فنشأ Vethal ، وكذلك زيدت الياء بعين الطريقة فى العبرية . . . . Vaahal وفى الأرمية Vethel ؛ ونجد فى الحبشية . . . . . Awsabs كما فى العربية ، بالواو أما الأكدية فوارد فيها Asabubu و Mahabu أى باضافة وار كالعربية والحبشية

من مفترضات الثنائية أن أصل المفردات حرفان ، فيجرى التطور بزيادة حرف ثالث عليها إما تتويجا وإما إقحاما ، وإما تذييلا ، مع بقاء اللحمة المعنوية بين الثنائى والثلاثى ، كما هى مستمرة بين الثلاثى والرباعى ، وما فوقه من المزيدات

على أنى بفضل تقصيات خاصة توصلت إلى الوقوف على أن الثلاثى غير ناشئ عن ثنائى واحد ليس إلا ، بل عن ثنائيين أو ثلاثة ، حسب اختلاف مداليله . وقد أوردت فى تآليفى شواهد تثبت هذا القول . فأجتزئ . هنا بسرد واحد من الأمثلة هناك فعل (هلب) المختلف ، لا بل المتنافر المفاهيم ، لكن يمكن القول بأن (هلب) مشتق أولا من (لب) بزيادة الهاء تتويجا . ثانيا : من (هب) بإزال اللام إقحاما . ثالثا : من (هل) بإضافة الباء تذييلا

هلب : كثر شعره ، من (لب) ، ومنه اللب أى القلب ، لتراكم الشحم عليه . واللبة : اللحم المجتمع فى أعلى الصدر ، وفيه معنى الوفرة والكثرة

هلب : نتف وجز ، من (هب) المراد به القطع ، والنتف ضرب من القطع

هلب : السماء القوم : بلهم بالندى ، ومنه ليلة هالبة أى ماطرة . والهلابة : الريح الباردة ، من (هل) الدال على هطول المطر وشدة انصبابه

الأهلب : المتوف الشعر ، من (هب) ومنه هب السيف : قطعه

الأهلب : كثير الشعر ، من (لب) المراد به : التراكب

والتجمع والتلبد . وبهذا تنسق المعاني وتزول الضدية

أختم بالقول أن الثنائية ليست كما يتبادر إلى الوهم ، هدامة للثلاثية والرباعية ، ولاهي مقوضة أركان المعاجم ، إنما هي وسيلة للتأصيل السابق طور التصريف . فالقائل بالثنائية يدع التصريف على ما هو للثلاثي والرباعي ، ويحصر عمله في المعجمية . وفي هذا الحقل عينه لا يتوخى حق الثلاثية والرباعية ، لكنه يرتئي بأنه كما أن الرباعي يسوغ رده إلى الثلاثي ، وكذلك يمكن رد الثلاثي إلى الثنائي . مما ينجم عنه أن ليس الثلاثي بده الاشتقاق ، بل الثنائي

ويرى عمليا أن في هذه النظرية فوائد جمة المعجمية ، منها تجلي الانسجام والتساوق في تشعب الألفاظ بعضها من بعض ، وتوسع المعاني وتطورها مما هو واضح القصدان في الحالة الثلاثية الحاضرة

فمن ثم ، لا خشية على المعاجم من الثنائية ، لأنها بالعكس تتمشى فيها تنظيما معقولا ، كما أن ترتيب المعاجم الحديثة ، مثل محيط المحيط ، وأقرب الموارد ، والبستاني لم يضر المعجمية بل نفعها ، وإن خالف في الواقع تنظيم المعاجم القديمة ، أو بالأحرى عدم التنسيق فيها

والآن أكرز للمجمع الموقر آيات الشكران ، متمنيا لجميعكم التوفيق والنجاح في خدمة اللغة العربية الجليلة والسلام

الأب مرمرجي الدومنيكي

صديق رجيم

مهداة إلى صاحب العزة الزيات بك

للأستاذ حبيب الزحلاوي

كثيراً ما سمعت الأستاذ العقاد يقسم الصداقة إلى أنواع ، ويصنف الأصدقاء أصنافا ، هذا نصف صديق من نوع كذا ، وذاك ربع أو ثمن صديق من صنف كيت ، وكانت لائحة الأصدقاء عنده أشبه ما تكون بورقة ذات خطوط وتماريج في الطول والعرض يثبتها الطبيب فوق سرير المحموم تسجل المواسية فيها درجات الحرارة وتقلباتها . وما كان يضير أستاذي العقاد أن يسقط صديقا من صفوف الأنصاف إلى الأعقاب أو يرفع آخر إلى أعلى درجة ، ولا يؤاخذهم على بادرة أو هنة أو هفوة إلا بالحساب القيامي لمنزلتهم من الصداقة

كنت أستغرب تلك التقسيمات ولا ترتاح نفسي إليها ، لأني تدربت منذ الصغر على أن مكان الصداقة هو القروة إن تزحزحت عنها هبطت إلى الحضيض ، وأن الوسط بين القروة والحضيض هو النفاق ، وكنت إن منحت صداقتي لإنسان فإني أمنحه إياها بسخاء كامل ، وإن ضننت بها ، فإني أضن ضن الشحيح الثأي ، وكنت أعتمد في الحالتين على الحدس والجاذبية

لقد قطعت أشواطا من حياتي ، فما أكثر من خاصمت خلالها من أصدقائي ، وما أقل ، بل ما أندر من عاديت منهم لاعتقادي مني بأن الخصومة من شيم الأصدقاء العقلاء . أما العداوة فهي من أوصاب الجهلاء والأغبياء ، وإني أنزه أصدقائي عن الغباء والجهل لأنهم كلهم بين أديب وعالم ومن خيار المثقفين

* * *

لقد أدهشتني يا صديقي ، يوم عاتبتني بشدة ، وعهدي بك الدمث السلس ، وما عهدت بك الفجاجة والتوعر قط ، لقد أذهلتني ساعة سألتني عن ذلك الإنسان الذي جالسنا فترة بل هنيهة وانصرف . لقد أذهلتني ولقد كانت نبرة الكلمة تنطلق من بين شفتيك كالسهم ، تسألني بشدة وصرامة أني وكيف عرفت ذلك الوجه الكالح المكفهر ، والقدم الفظ السمج الغليظ ، لقد حيرتني وأنت تنقض كالصاعقة تنزل البلاء بصديق الذي لم تره إلا في تلك الجلسة العابرة .. ولم تسمع سوى نتف من حديثه الخاطف ، لقد تحيرت لا لأنك استثقلت روح صديقي وعجمت كثافة ظله ، بل لأن حكمك الجائر ينصب على ذوقي ، وعلى معرفتي وتقديري فيمن اختار من الأصدقاء

لم أحاول إقناعك بأنك جائر في حكمك على صديقي المسكين